المبحث الأول

قصة يوسف

تمهيد

من الواضح من سياق القصتين أن يوسف لم يجد صعوبة دينية فى منزل العزيز، ولكن يوسف لم يدعو إلى الله كسائر الانبياء ولا يعرف إن كان العزيز والملك من الطائفة الإبراهيمية أم من غير ذلك من العقائد التى كانت منتشرة فى ذلك الزمان.(ويقال أن يوسف وفد الي مصر عندما كانت تحت حكم الهكسوس ولذلك سمي القرآن الحاكم بالملك علي خلاف فرعون موسي).

أما فى عصر موسى ويرجح أنه جاء بعد عصر يوسف بعدة قرون ،كانت الطائفة من بنى إسرائيل قد استقرت فى مصر منذ أيام يوسف ولكن فرعون نكل بها ولذلك كانت المهمة الأساسية لموسى وهو مصرى المولد والنشأة أن يخرج بنى إسرائيل من بطش فرعون الذى ذكر لنا القرآن الكريم صورا مفزعة عن معاملته لأبناء هذه الطائفة" يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم". أى أن سياسة فرعون انصبت على اضطهاد هذه الطائفة ولكن فى سياق قصة موسى كان واضحا التحدى الذى مثله موسى لألوهية فرعون تلك الألوهية التى نعتقد أنها كانت سياسية وأن فرعون كان يعلم علم اليقين أنه ليس إلها ولكن المرحلة التى ظهر فيها موسى كان نظام الحكم فى مصر يعترف بألوهية فرعون بعد مروره بمراحل من ظل الله على الأرض إلى ابن الإله ثم نصف إله ثم إله. ومن الواضح أن الفرعون كان يدرك تماما أنه ليس الإله وكان استخفافه بالمصريين هو سبب تماديه " أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار

تجري من تحتي " ،" هل لكم من إله غيري " .ولذلك جاء فى تكليف الله لموسى أن يذهب إلى فرعون لأنه طغي أي جاوز الحد بالنية لله ولرعيته ولبني إسرائيل وأن يقول له قولا لينا لعله يتذكر أن الله موجود، أو يخشى بطش الله به بافترائه علي الله وادعاء الالوهية وبذلك أمر موسي أن يستخدم أهم مصدرين من مصادر المعرفة وهما العقل والقلب.

وفيما يلى من الصفحات نسجل بعد الخواطر القانونية واللفتات الفنية التى زخرت بها قصة يوسف فى سورة يوسف حيث بدأت السورة بالتأكيد على أن القرآن نزل بلغة عربية فصيحة وأن قصة يوسف مليئة بالعبر ومن بينها العبر القانونية التى نتوقف عند بعضها في تأملنا لهذه القصة.

فيخبرنا القرآن الكريم ان يوسف ولد فى فسطين لنبى الله يعقوب من زوجة ثانية وأنه لصغره أو أنه من زوجة أكثر شبابا كان أقرب الي قلب أبيه من اخوته العشرة من الأم الأخرى . ومن الواضح أن هؤلاء الأخوة كانت قضيتهم الأساسية هى كيفية التخلص من يوسف وليس من أخيه الاصغر مما يعنى أن قربه من أبيه كان لفضائل أخرى فيه بخلاف السببين السابقين، وأن يوسف كان لا يتجاوز فيما يبدو خمس سنوات بحيث يكون أقل من مشاركتهم فى لعبهم وأقدر على حراسة متاعهم وأن هذه هى عادة كانت معروفة فى ذلك الزمان من صور الرياضة والترفيه. أما البئر الذى ألقى فيه يوسف فيبدو أنه كان فى أطراف القرية ليس ببعيد عن المكان الذى قال الإخوة لأبيهم أنهم كانوا يستبقون فيه وأن هذا البئر لم يكن مليئا بالماء وإلا لغرق يوسف كما لم يكن كامل الجفاف وربما كان مهجورا وأن جسم يوسف كان نحيفا لأن أفراد السيارة الذين عثروا على يوسف تمكنوا من إخراج الدلو دون أن يلحظ الخادم أن به إنسانا وأن الحبل الذى يربط الدلو كان من القوة بحيث يحتمل هذا الطفل

الصغير. ويبدو أن يوسف كان قد أوحي إليه بمكر إخوته وأنه واثق أن الله لن يضيعه ولا بد أن الوارد أو الخادم الذي توجه الي البئر بأمل إحضار الماء قد ابتهج عندما فوجئ بأن الذى بالدلو ليس الماء وإنما هو غلام ذكر وهذا يعنى أن الصبية من الذكور كانوا يباعون فى الأسواق بأسعار أعلي وأن هذه بشارة كبيرة لمن أرسلوه إلى البئر. ومن الواضح أيضا أن مصر كانت تعرف فى ذلك الوقت تجارة الرقيق.

النقطة القانونية الأولى هى أن تجارة الرقيق كانت مألوفة وأن يوسف لصغره لم يكن جائزة كبيرة للذين عثروا عليه ولذلك يقول القرآن أنهم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين وأن الذى اشتراه ممن يعملون في سوق الرقيق ولكن الله فتح عليه عندما باعه لعزيز مصر مما يظهر أن الطفل بدا عليه أنه من بيت كريم لا يحتمل الاهانة.

فالرق كانت له مصادر متعددة منها الحروب ومنها الاعسار عن الوفاء بالدين (ولذلك ربط القرآن بين الربا وتجارة الرقيق لأن الربا كان من أبواب الرق)، مما يؤدى إلى استرقاق الدائن للمدين ولذلك حث القرآن الكريم على تجفيف منابع الرق وحسن معاملة الأسرى وحظر استرقاقهم وميز بين الاسير وبين ما سبق من اوضاع العبودية والاسترقاق لأن الناس فى الإسلام متساوون فى الكرامة الإنسانية.

وكان شائعا فى ذلك الزمان أن الرقيق يختلف عن الخادم . فالرقيق ليست له شخصية قانونية ولا يتمتع بأى حقوق ويعامل معاملة الأشياء، كما أن روما القديمة التى بدأت حضارتها فى القرن الرابع قبل الميلاد ربما بالتقابل مع قصة موسى كان لديهم سقوط صفة الحرية عن المواطن الحر فيصح رقيقا فى أحوال محددة وأهمها الفرار من الخدمة العسكرية والاعصار وغيرها مما ينزل الحر إلى مرتبة العبد ويسمى فى القانون الرومانى الموت المدنى La Mort

Civileأى انقضاء الشخصية القانونية والأهلية القانونية فى التصرف . وظل هذا النظام سائدا لقرون طويلة تالية والدليل هو فتوى العز ابن عبد السلام فى مصر لأن المماليك عبيد وأن العبد لا يجوز له أن يكون حاكما وهي الامامة الكبري وأن هذا العبد الحاكم يجب أن يشتريه أحد ويعتقه حتى يصبح كامل الأهلية فيصلح للامارة . وبعد ذلك بعدة قرون جاء المتنبى الي مصر وهجا حاكم مصر فى ذلك الوقت أحمد الاخشيد وكان عبدا وقال فيه قولته الشهيرة:

صار الخصي إمام الآبقين بها * فالحر مستعبد والعبد معبود**

ولذلك فإنه إذا كانت العبودية فى الإسلام لله وحده فقد جفف منابع الرق ووسع طاقات الحرية وجعل تحرير الرقيق أحد صور التكفير عن الخطايا أو الوفاء بالتزامات دينية. وهذه المساواة بين بنى البشر جميعا هى التى دفعت أشراف مكة إلى انتقاد الرسول وسخريتهم من دعوتهم لأنه لا يتبعه إلا "أراذلنا بادى الرأى" لأنه يسوى بين العبد والسيد فى المجالس فأبت نفوس الأشراف تنزيل قدرهم ومساواتهم بعبيدهم.

النقطة الثانية: هى أن القرآن الكريم يستخدم عادة مصطلح الشراء وليس البيع على خلاف القانون المدنى الذى يستخدم عقد البيع وليس هناك عقد للشراء ولذلك عبر القرآن عن بيع القافلة التى عثرت على يوسف فى البئر بأنهم شروه بثمن بخس وكذلك يشترى المؤمن رضى الله بالعبادات والانفاق. والبخس فى اللغة هو عدم التناسب بين المبيع وبين الثمن تعبيرا عن زهدهم في اقتنائه.

النقطة الثالثة: هى أن التبنى كان نظاما معمولا به حينذاك ، يدلنا على ذلك أن الذى اشتراه من مصر وهو عزيز مصر أو رئيس الوزراء حينذاك طلب من زوجته التى لا تنجب أن تكرم هذا الطفل لأنه قرر تبنيه فنقله من مرتبة

العبد إلى مرتبة الابن بالتبنى لما فى ذلك من تفاوت فى المعاملة والمصير، فالعبد له أعمال معينة وللسيد عليه كافة الحقوق لأنه مشترى وليس له شخصية قانونية ولا ذمة مالية أو أهلية وهى من آثار وخصائص الشخصية القانونية، وذلك على خلاف الابن بالتبنى. ويبدو من القصة أن زوجته (امرأته) كانت أصغر منه كثيرا وأنه عند وصول يوسف إلى بدايات الشباب كانت فى عشريناتها المتأخرة فضلا عن جماله، مما جعلها تهيم به حبا " قد شغفها حبا". ذلك أن التبنى لم يمنع هذه المشاعر ولذلك يبدو أن تلك الزاوية الإنسانية هى أحد مبررات حظر التبنى فى الإسلام ، ومن الواضح أيضا من ألفاظ القرآن على لسان العزيز أنه قصد منذ البداية ألا يسترق يوسف رغم أنه اشتراه، بدليل توصيته لزوجته بأن تكرم مثواه "عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا".وهي نفس الاشارة في قصة موسي.

النقطة الرابعة: هى أن التنقل عبر الكيانات القائمة فى ذلك الزمان كان ميسورا وإن كان الأجنبى فى ذلك الوقت كان محل شك وريبة ويرجح أن قصص جحا الخرافية كانت تعكس هذه الحقيقة، حيث كان الأجنبى جاسوسا إلى أن يثبت العكس، وكانت المنطقة العربية جغرافيا فى العصور اللاحقة مرتعا لأى من أبنائها. وتطبيقا لذلك صار يوسف مقبولا للخدمة فى بيت مصرى دون التحرى عن أوراقه وهويته وجنسيته، بل فى بيت العزيز وكان ذلك أدعى للتحرى الدقيق من الناحية الأمنية بلغة زماننا.

النقطة الخامسة: وضع اللقيط فى عصر يوسف.

الملاحظ أن يوسف وموسى كانا لقيطين، وهذا الوصف له طابع مادى ووجه قانونى ولايقدح فى عظمة يوسف وموسى كأنبياء الله أن نطلق هذا الوصف الذى استخدمه القرآن فى حالتيهما.

ذلك أن يوسف كان فى البئر، فالتقطه بعض السيارة، وأما موسى فقد وضعته أمه فى صندوق فى النهر فالتقطة آل فرعون، وكلاهما التقط لكى يستقر كلاهما فى بيت الحكم. واللقيط هو الشخص أو الشئ الذى يعثر عليه فى مكان عام ولا يعرف له صاحب أو أهل، ولو لم يكن يوسف لقيطا لما تم بيعه ولا أعيد إلى أبيه سيدنا يعقوب. ولو لم يكن موسى لقيطا لما أخذه آل فرعون "ليكون لهم عدوا وحزنا" ولو عرف فرعون أهل موسى لذبحه فرعون تنفيذا للنبوءة، وهو من أطفال بنى إسرائيل.

النقطة السادسة: هى تحرش امرأة العزيز بيوسف وادعاؤها عليه، وهو عمل أفصحت هى عنه بعد ذلك وأصرت عليه رغم أنه صار فضيحة فى المدينة بلغة القرآن حيث امرأة العزيز " تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً" فهى تعلم أنه ليس ابنها وإنما هو متبنى ولذلك فهو ليس من المحارم بل يجوز له أن يتزوجها وهى تعلم أن وجوده فى بيتها بهذه الصفة وثقتها بأنه لن يذيع سرا شجعها على التحرش به والإصرار على ذلك، كما أنها لم تتردد فى توجيه التهمة إليه وهى تهمة تمس الحكم ومنزلة العزيز ومكانته، فانتشر الخبر بين الطبقة الارستقراطية التى تختلط بزوجة العزيز وأخذ النسوة يكيدون لها مما أوغر صدرها(لجهلهم بالمشكلة) فلا هى نالت منيتها ولا هى سلمت من ألسنة النسوة فابتكرت وسيلة جديدة لكى تبرر فعلتها وليس لكى تبرئ نفسها من الهيام بيوسف، حتى شهدت النسوة فى سكرة النظر إليه أنه ملك كريم وليس إنسانا عاديا مما كان له أبلغ الآثر فى اشتعال نار الوجد عند امرأة العزيز.

النقطة السابعة: أنه عندما حاول يوسف أن يفر من مطاردتها وتضييقها الخناق عليه بعد أن تهيأت له واستحضرت كل كيانها وثقل نفسها لهذا العمل، فإذا به يخيب ظنهاويحاول الهرب منها إلى خارج غرفة نومها، فوجدا معا العزيز يوشك أن يدخل الغرفة على غرة. وكان الموقف غير حاسم، فالفتى فى

غرفة النوم وهذا أمر طبيعى ومريب فى نفس الوقت. فهو أمر طبيعى أن يدخل الأبن غرفة نوم أمه بالتبنى، وهو مريب أن يدخل فتى هو فى النهاية غرفة نوم سيدة البيت فى غياب زوجها، ورغم أنه من الواضح أن يوسف استدعته زوجة العزيز لغرض فى نفسها وهو يستجيب للدعوة ببراءة. ولكن القرآن يلفتنا إلى أنه همت به أى بادرته وطارحته الغرام ولكنه تأبى وإن كان القرآن يذكر لنا دخائل نفسه بقوله أنه هو أيضا تجاوب وهم بها وكاد يقع فى الفاحشة لولا أن رأى برهان ربه.

الخلاصة أن المرأة شعرت بالإهانة فأصرت على مطاردته عندما فر أمامها يقصد الافلات من الباب، فإذا بهما يفاجآن بسيده لدى الباب. فكان اتهامها ليوسف رد فعل عفوي لتدفع عن نفسها أى شك فى سلوكها ولترد فورا على السؤال الذى فاجأ العزيز فى هذا الموقف وكأنه يقول ماذا حدث، ما خطبكما. ويبدو من سياق السورة كلها أنها لم تكن تنوى أن تدفع بيوسف إلى درجة اليأس من نواله فطالبت زوجها بأن يعاقب من يعتدى على شرفه بالسجن أو بالعذاب الأليم. ولكن الله أراد أن يبرئ يوسف فى هذا الموقف العصيب الذى ظلم فيه مرتين مرة أنه ضحية هجومها واستهدافه، ومرة أخرى باتهامه بأنه هو المخطئ، فأراد المولى أن يكافئه على أنه استعصم. فشهد شاهد من أهلها شهادة قانونية عبقرية، فلو شهد الشاهد مباشرة لصالح يوسف لكان الشك واضحا فى شهادته لأنه لم يكن معهما ولا يعرف من الجانى ومن الضحية، كما أن شهادة بهذا المعنى كانت ستسبب نقمة المرأة عليه. وكانت شهادته أنه وضع قاعدة عبقرية فى الإثبات الموضوعى مادمنا أمام مدعى ومدعى عليه. فهى تعلم يقينا أنها المتحرش بيوسف. (اعترفت في النهاية) " أنا راودته عن نفسه فاستعصم ليعلم أني لم أخنه بالغيب .." ولم تقصد أن تعاقبه على جريمة

لم يرتكبها ولكنها ردة الفعل التلقائية لتدفع عن نفسها الظنون التى استولت على العزيز فور مفاجأته بالمشهد، أو لعلها أرادت أن تعاقب يوسف لأنه استخف بمشاعرها وأحبط نيران تعلقها به وكسر كبرياءها وأهان أنوثتها.

والقاعدة التى تميز بين الجانى والضحية هى أنه إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، فقدم افتراض اتهام يوسف وحفظ لمقام المرأة مكانتها، أما إن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فقد القميص من قبل يعنى أنه يهاجمها ولكن قده من دبر يعنى أنه يفر منها وأنها شقت قميصه وهى تستوقفه من الخلف. فتأكد للعزيز براءة يوسف وأن امرأته هى المعتدية، فأدان العزيز زوجته وطالب يوسف بالصفح وتجاوز الإساءة وعزا زوجها موقفها إلى صفة فى كل النساء وهى عظم كيدهن، وطالبها بأن تستغفر لذنبها، فقد ارتكبت ذنبين، الأول أنها تحرشت به، والثانى أنها ادعت كذبا ذلك عليه وافترضت أن العزيز سيصدقها حين افترضت خطأ يوسف فى شرف العزيز وحددت العقوبة ليوسف بالسجن أو عذاب عظيم.

النقطة الثامنة: إذا كان العزيز قد تأكد من براءة يوسف مما زعمته زوجته فلماذا قرر سجنه؟ من سياق السورة يتضح لنا إلحاح زوجته على يوسف واستمرار إصرارها على افتراسه خاصة بعد أن أسكتت النسوة اللائى لمنها فى حبه وأفحمتهم لتبرير ثورتها عليه وليس لتبرئة نفسها مما انتشر فى المدينة، فلم ترد الإشاعة بأن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبا، ولكنها حرصت على الحصول على هزيمتهن أمام جماله، وقالت لهن فذلك الذي لمتننى فيه، وفيما بعد عبر الشاعر العربى عن حالتها قائلاً:

يالائمى ما أنت أول لائمى

دعنى لحاك الله لست بعاقل

لو كنت تعلم من أحب عذرتنى

لكن جهلت فلمتنى بالباطل

ولكن الشاعر يتحدث عن هيام رجل بامرأة، بينما امرأة العزيز هى التى تهيم بالرجل.

وعندما استفوت امرأة العزيز بشهادة النسوة صعدت محاولاتها عليه، وهو أسير فى بيتها فاستنجد بربه بما يظهر بجلاء بشريته" إن لم تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ". ولكن مع إصراره على نبوته التى تعصمه من النوازع البشرية . ولو صبا إليهن لسقطت عنه النبوة، كما أنه يبدو أن عددا من النسوة وقعن فى حبه أيضا فتظاهرن مع زوجة العزيز وربما تسابقن أيهن تفوز بقلب يوسف وبذلن له من تزلف النساء وحيلهن ما اضطره إلى الاستنجاد بربه.

من الواضح أيضا أن العزيز عندما لحظ هذا الموقف العصيب ليوسف خشى من الفضيحة فى بيت الحكم، فلم يحله إلى قضاء ويبدو أن السجن السياسى كان معروفا فى مصر فى ذلك الزمان أى السجن لأسباب سياسية دون بيان هذه الأسباب أو لعلها قضية تتعلق بالأمن القومى كما نزعم هذه الأيام فأراد العزيز أن ينقذه يوسف من ضغوط النسوة مع زوجته خاصة عندما أصرت زوجته على العصف به ما لم يفعل ما تأمره به فالسجن السياسى ليس بحكم قضائى وغير محدود المدة، وربما كان إجراءاً تحفظيا لحماية يوسف ووقف أخبار الفضيحة .ومن ناحية أخرى أراد الله أن يحميه من الضغوط والسقوط فى الضعف البشرى.

النقطة التاسعة: هى أنه مادام السجن السياسى لا موعد لنهايته فقد كان مقررا أن يبقى يوسف فى السجن بقية حياته، ولولا أن الله قد من على يوسف بموهبة تفسير الأحلام والرؤى لمكث فى السجن حتى الموت.

من زواية أخرى، غلبت على يوسف بشريته وربما نسى أنه نبى أكثر منه بشرا فاستطال سجنه حتى حاول أن يعبر عن أمله فى أن يخرج منه، ولذلك أوصى أحد زملائه فى السجن الذى بشره بأنه سيكون ساقى الملك أن يذكر به الملك وهو غير العزيز الذى ربى فى كنفه وتسببت امرأته فى سجنه، فأنساه الشيطان بطلب ذلك من ربه، فنسى فى السجن عددا آخر من السنين، فتذكر زميله قصته صدفة عندما طلب الملك من يفتيه فى رؤياه فتذكر موهبة يوسف فأراد من ناحية أن يتقرب إلى الملك، بأن يفسر له رؤياه، وربما أراد أيضا أن يرد ليوسف المعروف والجميل ويفى بما وعد به لقاء بشراه بخروجه من السجن وعمله بالقرب من الملك على عكس زميلهما الذى رأى يوسف أنه سوف يعدم، وهذا يشير إلى أن السجين السياسى يلقى به فى السجن ثم يتقرر مصيره بعد ذلك، إما باستمرار السجن أو بالإعدام.

النقطة القانونية العاشرة: عندما وضع (مكيال) الملك فى ركب أخ يوسف عمدا ونادى المنادى بأن الصاع مفقود وسوف يتم التفتيش فى كل الأحمال التى بدأت المسير إلى بلادها. من الواضح أن مصر أيضا كانت تنتج لتصدر إلى البلاد المجاورة، وكانت أرغد الأرض المعمورة فى ذلك الزمان، وأن الحاجة إلى الحبوب من مصر هو الذى دفع أخوة يوسف إلى مصر. وعندما تم النداء على العير الحاملة للحبوب وتوقفت لتفتيشها لابد أن إخوة يوسف تحسبوا وتشاءموا من هذا الموقف، ثم صار التشاؤم فزعا عندما عثر على الصاع فى حمولة أخ يوسف لأن هذه القضية لها خلفياتها المحزنة فقد حزن يعقوب على فقد يوسف ولم يفرط فى أخيه ويرسله مع أخوته هذه المرة إلى بلاد بعيدة إلا بعد أن أخذ عليهم موثقا غليظا من الله أى أقسموا له بأغلظ الإيمان. والراجح أن إلحاح الإخوة على أبيهم كان أشد من إلحاحهم عليه عندما تآمروا على يوسف، ولكن اصطحاب أخيهم معهم هذه المرة كان مخلصاً وليس

بدافع التخلص منه فى مؤامرة، ولذلك كانت أيمانهم خالصة، ويبدو أن أباهم قد اهتزت لديه الثقة فيهم فبقى فى نفسه شئ من الشك، هم يدركونه قطعا، ولذلك فإن إعلان وجود الصاع فى ركب أخيهم الأصغر شقيق يوسف من أمه وأبيه اضطره إلى أن يسترجع هذا الشريط.

اللقطة القانونية الحادية عشرة: فى هذا الموضع من قصة يوسف هى أنه عندما أعلن عن ذلك وأعلن أنه سيتم احتجاز من وجد الصاع فى ركبه سارع كبير الإخوة بعرض نفسه بدلا من أخيه فقال يوسف معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا الصاع فى ركبه وكان بذلك يؤكد على قاعدة جوهرية فى المسئولية الشخصية وهى أنه لاتزر وازرة وزر أخرى، علما بأن تاريخ القانون المصرى القديم يظهر حتى قصة الفلاح المصرى الفصيح، قاعدة أخرى وهى أن من يقود الحمار هو المذنب وتم اعتقاله، ولم يكن مبدأ مسئوولية المتبوع عن أعمال التابع قد استقرت فى الأعراف القانونية فى المنطقة، ويبدو أنه لا تعارض بين القاعدتين على أساس أن الجريمة والعقوبة مرتبطة بالشخص، وهو ما أكده القرآن الكريم بعد ذلك بقرون بقوله تعالى وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه،ولا تزر وازرة وزر أخري" التي تكررت في أربعة مواضع هي سورة الأنعام الآية ١٦٤، وسورة الإسراء الآية ١٥، وسورة فاطر الآية ١٨، وسورة الزمر الآية٧ ، فكانت القاعدة سارية فى النظم القانونية وفى الآخرة يوم الحساب.

النقطة الثانية عشرة: هى قول كبير الإخوة لأبيه مؤكدا جرم ولده الأصغر بأنه ما شهدنا إلا بما علمنا، وطلب منه أن يستوثق من القصة بأن يسأل من كانوا يشترون الحبوب من البلاد المجاورة.

هذه النقطة تلقى الضوء مع واقعة وشهد شاهد من أهلها فى بداية القصة يوم تحرشت امرأة العزيز بيوسف على عدد من الأمور الهامة.